العــزّة والإبـــاء

النفس الناطقـة ومــا أدراك ما النفس الناطقة. إنها جوهر بسيط روحاني خالد. شعاع من نــور الله الشعشعاني. إنها جوهـر الإنسانية في الإنسان. بل هي بذرة الألوهة في أرض وجوده الإنساني.

هـــي التـي خصّ بهـا الله الانسان دون سائــر الكائنات الحيّــة ليجعـل منـه سيّـد هذا الوجــود وغايـة معنــاه،ولقـد أعـزّ الله الانسان بالعقـل ليعقـل ذاتــه ويعقـل سائــر الموجودات ويعقـل معرفته بالسراط المستقيم الذي يوصله الـى باريـه.وعاد وأعـزّه بالحريـة فجعله المخلوق الوحيـد الذي يتحرك حركة حـرّة تجعله يختار افعاله بمـلء ارادته دون اكراه او اجبــار.وأعـزّه ثالثـا بالمسؤولية فهو المخلوق الوحيد المسؤول عــن تصرفاته لانها نابعــة مــن ارادة حــرة تنفّـذ تعاليم عقل حرّ.ولهذا كان الانسان المخلوق الوحيـد الاخلاقي فـي هذا الوجود القادر على التمييز بين العزّة والمذلّة بين السمو والانسفال،بيــن الانجذاب الــى العدالـة والمروءة والشجاعة والنبـل والكرم او الانجذاب الــى الشهوات البهيميـة التــي يشارك بها الحيـوان او إلــى الجشع والطمع والبخــل التـي تجعله يخسر حقيقة وجوده بأنــه كائــن اجتماعــي بالفطرة.وجعــل الله لوجــود الانسان غايـة،اذا اراد ان يحقق انسانيته عليه ان يسعى اليها بكامل ما أوتي مـن قــوة معنوية ومادية وهـي معرفة الله سبحانه وتعالى عبــر معرفته لنفسه وبأنها قبس مــن نور الله روحانـي بسيط خالــد.وما الجسد الا آلـة تستعملها لاكتساب علمها وعملها مــن خلال جوارحها.ولكــن اكثــر الناس جذبتهم الراحة والاباحة واستلهموا طريــق الانسفال مـع شهواتهم البهيمية وجشعهم فــي التملك والتكالب علــى الملذّات والمقتنيات حتـى هانت عليهم جواهــر نفوسهـم فباعــوا عقولهم فــي ســوق المــزاد وتنازلوا عــن حرياتهم ومسؤولياتهم فغدوا كالانعام بــل اضّل سبيلا.

قــال المتنبي:

عش عزيـزا أو مت وأنت كريـــم   بيــن طعن القنــا وخفــق البنــــود

فالنفس الابيّــة لا ترضخ لظلم أو استبداد ولا تخاف مــن بشر مثلها فتتزلّف وتتملّــق وتعتــاد الكذب والتدليس بــل تشرب كأس الموت صرفا والكرامة فــي حرز حريز.

قـــال عنتــرة:

لا تسقنـــي مــاء الحيــاة بذلّـــــة   بــل اسقني بالعــزّ كأس الحنظل

انها النفس التي تعلم قيمة جوهرها بانها قبس مـن نـور الله الشعشعاني فلا تبدّل ذهبا بتراب ولا انجذابا ألـــى الأعلى بانجذاب إلـــى الأسفل،فالجسد فان وملذّاتــه فانيـــة ولا يبقى الا موقف العــزّ يقفه الانسان فتتذكره الاجيال مــن بعده وتقتدي بـــه.

قـــال الأخطل الصغير:

نفس الكريم مــع الخصاصة والأذى   هـــي فـــي الفضاء مع النسور تحلق

إنها جوهر لطيف واللطيف إلى اللطيف يرقى وينجذب وأما من أذلّ نفسه بالشهوات والأطماع غدت نفسه جوهــرا كثيفا والكثيف إلى الكثيف يهبط وينسفل.

قـــال المتنبي:

يهــون علينــا ان تصاب جسومنـــا   وتسلم أعراض لنــا وعقــــول

فالإنسان اذا فقــد عقلــه فقد هويته كإنسان وغدا إسما لغير مسمّى أما إذا فقد عضوا مــن أعضاء جسده يبقى إنسانا سويــا يفكّر ويعبّــر.والإنسان بالبديهيات المنغرزة في جوهــر عقله وبما اكتسبه مــن علم المنطق والتجارب الحيّـــة يعلم ان العدالـــة فضيلة والظلم رذيلـــة والمروءة فضيلـــة والتخاذل رذيلة. فكيف بعد ذلك كلّه يبــدّل الانســان ما يسعد نفسه من لــذّة المروءة والعــزّة والعدالة بملذّات يظنها تسعد جسده من إباحة ومذلّة وكذب وتكالب على الشهوات ولكنها تعود لتنقلب عليه على قاعدة ان لكل فعل

ردّة فعـل تساويه فـي القوة.فشوك الظلم لا ينبت وردا وعليق المذلّة والكذب لا يثمر عنبا وتينـا ولكن الإنسان يظلم نفسه قبل ان يظلم الآخرين.

وبمـا ان العـادة إذا طـال الزمن بها تصبح طبيعة.أصبح مـن اعتاد المذلّة والارتهان طبيعتـه خسيسة مجبولـة بالتخاذل والعبثيّة فهـو كالخنازيـر لا يستمريء إلاّ الأكـل القـذر والأماكـن القـذرة.

قـــال المتنبي:

مـن يهـن يسهل الهـوان عليـه مـا لجـرح بميّت إيـلام

وجـرح الكرامة لا يصبح ميتـا إلاّ اذا وقع الإنسان فريسة الخوف ورهينة الارهاب فلا شيء يعطّـل عمـل العقـل ويفقد الإنسان فضائله أكثر من الخوف.فالخائف يكذب ويتملّـق ويراهن ويكون ظاهره غيـر باطنه وينسى بأنه خليفـة الله على أرضه وأنه جوهـر هذا الوجـود ومحجّته البيضاء.فتهون نفسه عليه وتهون عليه نفوس الآخرين وهذا أقصى درك أسفل ممكن أن يصل إليه الإنسان.

قـــال مسعود سماحة:

لا تفتخـر بنضار قد جمعت فقـد يأتـي ويذهب مـن أيامك الذهب
وافخـر بعـزّة نفس حلّـها أدب فليـس يتركهـا إن حلهـا الأدب

انـه القدرة علـى التمييز بيـن الأعراض والجواهـر فالأعراض هي الأشياء التي لا يستطيع المرء أن يحملها معه ساعـة يأتيه الموت على يدي عزرائيل.والجواهر هي التي ترافق الإنسان ساعة ينهدم الجسد ويبقى الانسان ذكرى في ضمير المجتمع.
فليسأل كل واحد نفسه ايّ ذكرى سيتركها في ضمير المجتمع.

أعـزّ الله مـن خاطب بني قومـه قائلا:ارفعوا رؤوسكم وطيّبوا نفوسكم. فهل نستطيع رفـع رؤوسنا فـي هـذا الزمن الذي يسوده إقتصاد الإستهلاك وقيـم الإستهلاك حيث تصبح الحاجة إلى المال دائمة مهما أعطيتها منه لا تشبع.أم أن الناس ستلوي أعناقها

وتعصب أعينها وتبيع كراماتها فــي أسواق النخاسة لأن الإباء لا يمكن أن يكون بين بين فإما ان يكون راسخا أو لا يكون.

قــال علي بي ابي طالب:مـن كرمت عليه نفسه هان عليه ماله.وقال الشافعي والله لو علمت أن شرب الماء يثلم الكرامة ما شربته طول حياتي.

أما الشاعر دانتي فقـال: بين المغرور بماله والفقير الأبيّ أختار أن اكون الثاني.

فهل بقــي لهذا الكلام من معنى في بلد نصف أهاليه على الأقل سماسرة أما سماسرة أرض أو سماســرة عرض أو سماســرة مواقــف وولاءات سياسيــة.وفــي أوقــات الإستراحة مــن تعب السمسرة يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم وعبقريتهم فــي التذاكي وليس الذكاء وفــي التشرد في القارات الخمس لا فــي الإنتشار الحضاري كما كــان عليه الأمر أيــام إليسار وقدموس وطاليس وفيثاغور.فمن يرى كيف يتصرف كبارنا هذه الأيــام يكون علــى يقين بأننا ننتقل مــن دور حضاري إلــى دور آخر،من دور افتخرنا فيه بالمروءة والنخوة ومد يد العون للضعيف واليتيم وحماية الطريد وغضّ الطرف حياء والعفو عند المقدرة.من زمن كنا فيه نقول"سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون"وننحني خشوعــا أمام الذكــر ونحن نردد"إنك أنت العزيز الحكيم" إلى دور أصبحنا نتباهى فيه برذائلنا ونعتبر ذلك فتـوّة.ونتلذذ بسماع فاحش الكلام ونعتبر ذلك تمدنا.ونصفق للبلطجة والتطاول على كرامات العائلات الآمنة ونعتبر ذلك جهادا.
رحم الله عهد الجاهلية ففيه ونحن نعبد الأصنام كنا نتفاخر قائلين مع السموأل:

إذا المــرء لم يدنس مـن اللؤم عرضه فكــل رداء يرتديــه جميــل
وإن هــو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلــى حسن الثناء سبيــل

تــرى أكنّا فــي جاهليتنا ونحـن عاكفون علــى أصنامنا أكثر مروءة ومعزّة مما نحن عليه اليوم ونحــن نتسابق علــى بناء دور العبادة وزرع الشعارات الدينية علــى كل ربــوة وعلى كل مفترق طريق؟

ليت شعري هــل بقـي لهذا الكلام من معنى وأبناء هذا الوطــن البائس يشربون كأس التنافـر والمخالفة حتى الجمام. فهم فـي وردهم يتشرذمـون وفـي صدرهم يتحاججون

وكأنهم لم يقرأوا أن يـد الله فوق يـد الجماعة. وكأنهم لم يسمعوا أن لأبناء العقل نورا يمشون به بين الناس. هو نور التآلف والتضامن والمحبة والمؤازرة. إنه نور العروة الوثقــى التي أمرنـا بالتمسك بها ليكـون لنـا مكانـا تحت سدرة المنتهى حيث السعـادة القصوى. إنها نظـام وانتظـام وتوازن وموازنـة وانسجام وتآلف وشوق وانجذاب إلى المثــل العليــا التي يحاكيها الإنسان بتصرفـاتـه الماديــة ليصل إلــى مرتبــة الكمــال الإنسانـــي.

كمال يوسف سري الدين